- **(محاضرة 2) علاقة اللسانيات النفسية بالعلوم الأخرى1:**

- **اللغة من منظور علم النفس التطوري:**[1]

إن المعرفة بمختلف تفرعاتها في حالة تفاعل مستمر لا يفتر طرفة عين، إن لم يكن في المستوى الظاهر لوعي الفرد ففي المستوى الباطن له ولابد، والناس اليوم بمختلف أصنافهم وشتى خلفياتهم منفتحون على كم هائل من المعارف المتدفّقة، ويتأثرون في كل لحظة لا بتداعياتها النصيّة الحرفية فحسب، وإنما بكل ما يلازمها من إيحاءات رمزية وإشارية متنوعة... ولا يكاد يسلم من سلطة هذا الواقع المعرفي المعقّد أحد.[2]

فقد يتعجّب الباحث الحروفي النصوصي كيف أنّ الداروينية وهي من علوم الطبيعة قد تسللت إلى البحث اللغوي وتفاعلت معه !؟ لكن من له عقلية كتابية استعابية أو عقلية تركيبية يستطيع أن يستوعب هذا جيّدا ويؤمن به ولا إشكال عنده البتّة. ومن بين أسئلة علم النفس التطوري في تفسير اللغة.

- هل اللغة تكيّفٌ أم أنها مُنتج ثانوي ؟

لقد كان هناك طرفان في هذا السجال على أحد الطرفين **ناعوم تشومسكي، وغاي غولد**[3] عالم الإحاثة، لقد جادلا بأن اللغة ليست تكيّفاً على الإطلاق، وإنما هي نتاج ثانوي أو أثر جانبي للنمو الهائل للدماغ البشري .نمو الدماغ البشري عندهما قد نتج عن الانتقاء الطبيعي. وحجتهم في ذلك أنه بعد أن وصل الدماغ إلى حجمه وتعقيده الراهنين، برزت اللغة تلقائياً وببساطة بمثابة واحدة من العديد من الأثار الجانبية، اقترحا أنه حين تضع معاً البلايين من الأعصاب في رزمة ضمن الحيّز الصغير الذي تغلفه الجمجمة، ستتجسد اللغة ببساطة. والأمر أشبه ما يكون بالحرارة المتولدة عن مصباح القراءة؛ فأنت لا تستطيع أن تبني مصباحاً مصمماً لبث الضوء بدون أن يولد كمية معينة من الحرارة بمثابة منتج ثانوي، اللغة بالنسبة للدماغ البشري الكبير هي كالحرارة بالنسبة لمصباح القراءة أي منتج ناشيء ولكنه ليس مركزياً بالنسبة لوظيفته أو غايته.[4]

---

[1] لم تعد نظرية التطور بوضعها الراهن "قاصرة على محاولة تفسير الجانب الحيوي العضوي الخالص للحياة، وإنما توسعت في نطاقها التفسيري حتى اخترقت حقولاً ذات استقلال وسيادة كعلم الاجتماع والنفس والأعصاب والثقافة، فأصبح لدينا الآن ما يعرف بعلم الاجتماع التطوري، وعلم النفس التطوري وعلم الأعصاب التطوري، وعلم الثقافة التطوري". انظر كتاب: ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، د. عبد الله بن سعيد الشهري، مركز نماء للبحوث والدراسات، دار نماء، ط1، 2014، ص:45، 46.

[2] انظر كتاب: أيقونات التطور: علم أم خرافة؟:د، جوناثان ويلز، ترجمة:د، موسى إدريس وآخرون، مراجعة وتقديم: عبدالله بن سعيد الشهري، مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، دار الكاتب للنشر والتوزيع، ط1، ص: من التقديم.

[3] ستيفن جاي غولد (1941-2002) عالم الحفريات أميركي، قضى غولد معظم حياته بالتدريس في جامعة هارفارد، ودرس غولد البيولوجيا والتطور في جامعة نيويورك، وكانت مساهمة غولد أهم لعلم الأحياء التطوري نظرية التوازن المشكل، التي وضعت مع نيلز إلدريدج في عام 1972.

[4] انظر: علم النفس التطوري –العلم الجديد للعقل-:دافيد باس، ترجمة: مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي، أبو ظبي، ط1، 2009، ص:50.

إذا كان هذا التفسير يبدو واضحاً في حالة المصباح إلا أنه غامض نوعاً ما في حالة اللغة، وذلك لأن القوانين الفيزيائية التي تولد الحرارة كمنتج ثانوي معروفة تماماً، إلا أنه لم يتم بعد تفصيل القوانين الفيزيائية الخاصة بالتقارب الشديد لرزمة الأعصاب المضغوطة التي أتاحت بروز اللغة. في الحقيقة يجد البعض أن حجة تشومسكي و**غولد** باطنية صوفية بعض الشيء. يبدو أن **تشومسكي** وزملاءه قد لطفوا مؤخراً موقفهم هذا كي يتيحوا مجالاً لإمكانية أن تكون اللغة تكيّفاً متطوراً، حيث اقترحوا أن اللغة البشرية يمكن أن تكون قد تم توجيهها بفعل ضغوط انتقائية خاصة، فريدة بماضينا التطوري، أو كأحد مفاعيل (منتج ثانوي) أنواع أخرى من التنظيم العصبي.[1]

وأحسن ردّ منهجي على أصحاب النظرة التطورية للغة من أمثال **تشومسكي** و**غولد** عندما رآا أن نمو الدماغ البشري قد نتج عن الانتقاء الطبيعي. وبعدما واصل الدماغ تطوره إلى درجة التعقيد برزت اللغة تلقائياً !؟ فإن:" قول المؤمن "الله أعلم" أفضل من قول الملحد "الصدفة"، لأن عبارة الأول تستبقي احتمالاً للفهم، أما عبارة الثاني فتلغي كل فرصة للفهم"، والنتيجة = الملحد صديق الفجوات بامتياز، كما يقول **عبد الله الشهري**.

أما **ستيفن بنكر**[2] الذي قاد الطرف المقابل بحيث يرى أنّ البنية العميقة لقواعد اللغة فائقة الجودة في تصميمها لخدمة وظيفة الاتصال، بحيث لايعقل أن تكون مجرد منتج ثانوي عارض لأدمغة كبيرة. تتضمن هذه القواعد عناصر كونية عبر اللغات: أي الفئات المعجمية الكبرى من مثل الأسماء، الأفعال، النعوت، وحروف الجر. أنها تتضمن قواعد تحكم بنية الجمل كما تتضمن قواعداً للترتيب التسلسلي الذي يحدد أي كلمات يتعين أن تأتي قبل وبعد ضمن جملة معينة كي تعبر عن معنى مضبوط. تحتوي كل اللغات على لواحق وبوادى تشير إلى التوزيع الزمني للحدث (في الماضي، الحاضر أو المستقبل) وعلى العديد من المكونات الأخرى الجوهرية والكونية.[3]

يشير "**بنكر**" إلى أن الأطفال يصبحون متحدثين بطلاقة بجمل معقدة قواعديّاً في مرحلة مبكرة من الحياة، في سن الثالثة عادة، وبدون أي تعليم رسمي أو تدريس، إنهم يلتزمون بقواعد لغوية خفية فعلاً لا تظهر بجلاء في بيئاتهم، وفي ما يتجاوز ذلك، ترتبط اللغة بمناطق نوعية من الدماغ- منطقة فيرنيك ومنطقة بروكا ويؤدي الأذى اللاحق بهاتين المنطقتين إلى إعاقة اللغة المحكية.[4]

---

[1] انظر: علم النفس التطوري –العلم الجديد للعقل-، ص:751.

[2] ستيفن آرثر بينكر (ولد في 18 /09/ 1954) لساني ونفساني أمريكي، من أشهر كتبه: الغريزة اللغوية –كيف يبدع العقل اللغة- الذي يرى فيه أن الملَكة اللغوية للإنسان هي سلوك فطري يتشكل عن طريق الإنتقاء الطبيعي مع احتياجات الاتصالات لدى البشر.

[3] انظر: المرجع نفسه، ص:752.

[4] انظر: المرجع نفسه، ص:753.

يقترح "**بنكر**" أنه عندما تجمع كل هذه النقاط معاً فإنها تشير بقوة إلى أن اللغة هي تكيّف، تماما على غرار التحديد المكاني صوتياً لدى الخفافيش أو مجسات الاستشعار لدى الحشرات، أو الإبصار المجسم لدى القردة، تبدي اللغة تعقيدات تصميم كونية لتوصيل المعلومات، ويتمثل التفسير الوحيد المعروف لأصول البنى العضوية المعقدة في التطور من خلال الانتقاء الطبيعي، يتمسك **بنكر** بالقول إن اللغة هي غريزة بمعنى أن الناس يعرفون كيف يتكلمون بالمعنى ذاته تقريباً الذي تعرف فيه العنكبوت كيف تنسج شِباكها...فاللغة هي تكيف لتوصيل المعلومات.[1]

أما المفهوم الغريزي للغة عند **ستيفن بنكر** فإنّه وكما يقول داروين بأن اللغة:"ذلك العضو الذي يتميز بإحكام البنية والتأقلم الذين يثيران الإعجاب والدهشة بحق"، سوف تؤدي بنا إلى إضفاء احترام جديد على الأفراد العاديين، وعلى اللغة الإنجليزية التي توصف عادة بالضعف (أو أية لغة أخرى) إن تعقيد اللغة وتشابكها، من وجهة نظر العالم، جزءان من طبيعتنا الأحيائية التي ولدنا بها؛ فهي ليست مما يُعلمه الوالدان أبناءهم، كما أنها ليست شيئا يلزم أن يُحذق في المدارس، ولقد كان داروين نفسه أول من عبر بجلاء عن مفهوم كون اللغة نوعا من الغريزة سنة 1871، في كتابه: the descent of man "تحدر الإنسان".[2]

أما "**وليم جيمس**"[3] فإنه يرحب بفكرة الغرائز وهو أحد أتباع داروين فقد لاحظ أن صاحب الغريزة ليس مضطرا أن يعمل مثل آلة قدرية، فقد رأى أننا نملك جميع الغرائز التي تملكها الحيوانات وزيادة، أما ذكاؤنا المطواع فقد نتج من التفاعل بين غرائز كثيرة متدافعة. ومن الأحرى أن تكون الطبيعة الغريزية للذكاء الإنساني هي التي جعلت من الصعب علينا أن نرى هذه الغريزة على طبيعتها أي أنها غريزة: إنه يلزم... وجود عقل أفسده التعلم[4] لكي يرى الإنسان الأشياء الطبيعية تبدو غريبة، وذلك حين يصل الأمر إلى التساؤل عن السبب وراء الطبيعة. ومن تلك الأسئلة: لماذا نبتسم بدلا من أن نقطب، حين نرضى؟ ولماذا لا نستطيع الحديث إلى جمع من الناس مثلما نستطيع الكلام إلى صديق على انفراد ؟... يبدو أنّ غرائزنا موغلة في الغموض والإبهام.[5]

---

[1] انظر: علم النفس التطوري –العلم الجديد للعقل–، ص:753.

[2] انظر: الغريزة اللغوية –كيف يبدع العقل اللغة–: ستيفن بنكر، ترجمة:د، حمزة المزيني، دار المريخ، م، ع، السعودية، 2000، ص:26.

[3] وليم جيمس (1842–1910) فيلسوف أمريكي من رواد علم النفس الحديث.

[4] يقول الفيلسوف والرياضي الإنجليزي برتراند راسل عندما قال:"لا يُولَد البَشَرُ أغبياء بل جَهَلَة، ثمّ يَجْعلهم التعليمُ أغبياء".

[5] الغريزة اللغوية –كيف يبدع العقل اللغة–، ص:27، 28.

لقد وصف علماء الإدراك اللغة بأنها قدرة نفسية، وعضو ذهني، ونظام عصبي، وقالب حوسبي، أما **ستيفن بنكر** فوصفها بكلمة غريزة، وقال بـ:"أن هذه الكلمة تؤدي الفكرة القائلة بأن الناس يعرفون كيف يتكلمون، بالمعنى نفسه تقريبا الذي تعرف بع العناكب كيف تنسج بيوتها. فنسج بيوت العناكب لم تخترعه عنكبوت عبقرية ولا يتوقف على الحصول على تعليم مناسب ولا على امتلاك قدرة خاصة في الهندسة المعمارية أو مهنة النسج، وتعطيها القدرة على النجاح في ذلك".[1]

هذه خلاصة نظرة علم النفس التطوري بإيجاز إلى اللغة، ولكننا لا نملك الحكم النهائي على طروحاته حول اللغة لأننا في زمن حركة العلم المفتوح المتجدد، وكما يرى **ماكس بلانك**[2] بأنّ "الحقيقة العلمية الجديدة لا تنتصر من خلال إقناع معارضيها وجعلهم يبصرون النور، بل بالأحرى تملك الأفكار المعارضة لها في نهاية المطاف وتندثر، ويبرز جيل جديد يكون على معرفة بها". بمعنى أنه يجب أن نقبل هذه الطروحات كافترضات والزمن هو الذي يكشفها ثم يصنفها إما في خانة الحقائق العلمية أو في خانة الإفترضات الوهمية.

أما **عبد الصبور شاهين** في تفسيره اللغة في كتابه:"آبي آدم"، نشره سنة 1998. فإنّه يرى أنّ البشر قد عاشوا ملايين السنين حتى تتمّ عملية التسوية، والنفخ الإلهي، وإنّ أقدم لغة وصلت إلينا هي لغة الجاذبية الجنسية، التي سببها التدافع والإحتكاك المادي، ولغة الجاذبية الجنسية هي أصوات مبهمة، فصوت الجنس هو أقدم الأصوات التي صدرت عن الإنسان، ولقد كان البشر آنذاك قبل الترقّي أشبه بطفل في سنواته الأولى، ولقد أشّر القرآن الكريم لهذا،[3] قال تعالى:"**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا**" (النحل:78).

ومن المسلم به علميا أنّ البشر كان مسبوقا بوجود حيوانات وكانت هذه تشكل عالما من الكائنات بأشكالها وأنواعها، كما كان لها تأثير مباشر على الوجود البشري، فمنها كان قوت البشر ووسائل عملهم، بل تولى بعض الطيور مهمة تعليم هذا المخلوق ما هو بحاجة إليه من سلوكيات يقول سبحانه وتعالى:"**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ**" (المائدة:31)، ولقد كانت العلاقة بين البشر والحيوانات تتنامى دائما كمّا وكيفا، وهي تحدث بصمتها، وتحفر في العقل البشري آثارها، وهكذا قليلا فقليلا، نشأت الأصوات ثم الكلمات ثم درجات من الجمل والتراكيب المتنوعة، وهكذا نشأت اللغة البشرية مع مرور الملايين من السنين.[4]

---

[1] الغريزة اللغوية –كيف يبدع العقل اللغة–، ص:23، 24.

[2] ماكس بلانك (1858-1947) عالم فيزيائي يعتبر مؤسس نظرية الكم.

[3] انظر: المرجع نفسه، ص:127.

[4] انظر: أبي آدم –قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة–، د، عبد الصبور شاهين، دار الإعتصام، ط1، 1998، ص:128، 129.